

إشكالية المصطلح عند محمد أركون من قداصة النص إلى أسطورية المعنى

خنوس نور الدين
المركز الجامعي البيضا

الملخص

يتعلق الموضوع أساسا بإشكالية المصطلح و استخداماته في المشروع الاركوني خاصة تلك الترسانة من المفاهيم الغربية التي حاول أركون ان يجد لها تربة خصبة في الفكر الإسلامي والاشكال الذي نود معالجته هل يمكن القبول بدعوي ان القران فكر اسطوري و هل الاسطورة أحد المفاهيم التي أسئ فهمها في الفكر الاسلامي ، فهل لاركون من الحجية العقلية ما يستطيع اقناعنا به بابرار التماهي مع النص القراني بدعوي القراءة الحداثية للنص، لنبين بعدها ان المشروع الاركوني في جعل النص المقدس مجرد مخيال مفعم بالرمزية دعوي لا اساس لها

Résumé

Cette article vise a traiter la problematique du terme et ses utilisations dans le projet du Arkoun .Surtout ceux arsenal de concepts occidentaux dans essayé de trouver un terrain fertile dans La pensée islamique . le suget que nous aimerions etudier eceque il ya un acceptation peut affirmant que le Coranet un pensait ethique et légendaires se concepts Sun mal compris dans la pensée islamique, faire Arcon mentale authentique comme il pourrait nous convaincre en mettant en valeur l'identification avec le texte du Coran sous le prétexte de la lecture du texte moderniste, pour montrer ensuite que le projet du arcon rendre le texte sacré juste plaine de symbolisme

المقال

ان كل دراسة واعية لظواهر الثقافة الإنسانية تتطلب الوقوف عند المصطلح و التوقف عنده وعند دلالاته ، ويصبح ذلك من المسائل العلمية المهمة ، بحيث لا يمكن إستمرار البحث دون التملي فيها ، و تحري الضبط لهذا المصطلح، ذلك لأن الإنسياق وراء البحث دون هذه الخطوة قد يفضي بالباحث إلى مسائل متفرعة ، و قد تكون هامشية ،أو ثانوية ،دون الظاهرة المقصودة .و عليه فكل دراسة لا تأتي بعد قراءة متأنية للظاهرة وللمصطلحات المعبرة عنها تمكن من تحديد الظاهرة و إعطائها تعريفا محددا، قد يفضي بالباحث إلى أهواء و مواقف مسبقة . لماذا هذا التقديم ؟لأن الطرح الذي نود ان نلجه مع اركون يتعلق اساسا بمسالة المصطلح و استعمالاته، بل و محاولة استثماره ايضا ، في تفكيك و تحليل قضايا الفكر الاسلامي، ضمن ما سماه اركون باللامفكر فيه في الفكر الاسلامي .او القضايا المسكوت عنها في هذا الفكر . متأثرا في ذلك بمناهج المستشرقين و اهدافهم في تطبيق مستحدثات الفكر الغربي و منتجاته، في التعامل مع هذا الفكر . فعلى الرغم من ان التنوير الذي تأثر به اركون و مجده و تغني بانجازاته رفض الاسطورة. و رفضوا اعطاءها اي قيمة علمية، و عدوها من القصص - الطفولية ،و نتاج الجهل و الخرافة كما قد ركز على ذلك منتسكيو، و ماكس مولر، و اغوست كونت وغيرهم من فلاسفة التنوير.الا ان اركون يري في الاسطورة كمفهوم غير ما يراه هذا الفكر.لقد اعتبرها في مستوى القرآن بل ان القران يحمل بنية اسطورية كماقال "ان القران خطاب اسطوري البنية"⁽¹⁾

ان اهتمام العلوم الانسانية الحديثة وخاصة المعاصرة لاحقا بالاسطورة و الاهتمام بالمناهج التي ساهمت في تطويرها و التوسم في ان تكون احد طرق اكتساب المعرفة، باعتبارها مكون جوهر في الحضارة الإنسانية يقصدها الإنسان في كل عصر، من أجل أن تعينه في إدراك الأخلاق و العبادات ،و الطقوس ،و حتى أساليب الحياة و أدوارها . كل ذلك جعل اركون و هو المنبهر بما يراه علما ان يعيد الاعتبار لمفهوم الاسطورة المظلوم في الفكر الاسلامي، لدرجة اعتبار القرآن مجرد اسطورة .فهو أحد الروافد التي تنشئ معرفة علمية ،بل

و تساهم في تجديدها و تطويرها ، انها معين يمكن الإستعانة به قصد بلورة معرفة بأحوال الإجتماع و السلوك و الفكر ، و الدين و السياسة ، مثلها مثل النصوص المؤسسة الأخرى ، التي يوليها المسلمون القداسة و التبجيل ، فقط لأنها كانت كذلك في كل المجتمعات المتعاقبة . لكن المشكلة التي تطرح نفسها امام اركون هي ذلك الاستخدام السيئ لمفهومها ، و اللبس والغموض و سوء الفهم ، نظرا لعدم تبلور هذا المفهوم في اللغة العربية بالمعنى الأنتروبولوجي الحديث ، و ذلك لسبب بسيط هو انقطاع الغرب عن الإستفهام الفعال في تطوير العلوم الإنسانية الحديثة ، لكن ما الذي يضير اركون في ان يكون هذا المصطلح بالذات هو المفهوم الذي أسئ فهمه ، في الثقافة و الفكر الاسلامي دون غيره من المفاهيم و الافكار و المصطلحات الأخرى الكثيرة في هذا الفكر ؟ هل يريد استخدامه بطريقة ما في بلورة تركيبة مفاهيمية تخدم مشروعا ما ؟ هل ثمة مشروعية منطقية ذات بعد ادبي تسمح بتماهي الاسطورة مع القرآن ؟ هل يمكن ان نضع خطوط فاصلة بين حقيقة القرآن و حقيقة الاسطورة ؟ ثم ماهي مجالات التداخل بين الاسطورة و الدين ؟ و هل هي مبررات كافية ليقول اركون بالتماهي بين النص القرآني و النص الاسطوري ؟ هل الرمزية الموجودة في النص القرآني دليل اسطوريته ؟ هل احتواء النص القرآني علي مواضيع القصص بفضي مع اركون الي القول باسطوريته ؟ . يجب ابتداءا ان نحدد معنى الاسطورة و حجية قبول مبررات استخدام هذا المصطلح في تحليل قضايا الفكر الاسلامي .

الاسطورة تعني في قواميس اللغة الأجنبية كمصطلح انها: حكاية شعبية او أدبية تضم كائنات خارقة و إجراءات خيالية تنتقل بالأحداث ، فهي تفسير لقصة رمزية تروى حادثة غريبة أو خارقة للطبيعة ، وتوجد في ثقافة فرعية ، تتميز بتقلها و إنتشارها على نطاق واسع ، وتأثير عميق ، نتيجة ما تنطوي عليه من حكمة و فلسفة وإثارة للإهتمام . كمايورد لسان العرب في معنى الأسطورة " سطر و السطر : الخط ، الكتابة ، سطر : السطر الصف من الكتاب أو الشجر أو النخل و نحوها و الجمع من ذلك أسطر و أسطار و أساطير ، يقال سطر علينا جاءنا بالأساطير . يقال سطر فلان على فلان إذا زخرف له الأقاويل و نمقه و تلك الأقاويل ، الأساطير ⁽²⁾ ، أي دون و الف الخبر العجيب . و يضبطها مصطلح العلوم الاجتماعية " ان الاساطير هي المعتقدات المشبعة بالقيم و المبادئ التي يعتقد بها الناس و التي يعيشون بها او من اجلها و يرتبط كل مجتمع بنسق من الاساطير ، يعبر عن الصورة الفكرية المعقدة التي تتضمن في الوقت نفسه كل نواحي النشاط الانساني " ⁽³⁾ .

انطلاقا مما سبق فان الاسطورة تشكيل مهم في التراث الثقافي الانساني ، مهم في تشكيل الحضارات الانسانية ، لذا فتحديدها اللغوي و الاصطلاحي لا يجب ان يبتعد عن الاجتماع الانساني ، اذ الأسطورة أحد الظواهر الثقافية التي تنتسب إلى واضعها الإنسان ، فهي حكاية تقليدية تلعب الكائنات الماورائية أدوارها الأساسية . لكن هذا التحديد قد نجده فضفاض تدخل ضمن تحديده أصناف ثقافية انسانية أخرى ، أو بالأحرى سياقات ثقافية أخرى ، فالقصة و الخرافة ، و الحكاية ، كلها تدخل ضمن هذا التحديد ، و عليه يجب انحدد ان النص الأسطوري نص يختلف عن هذه النصوص ، فهو نص ابتداءا يحكي قصة الإنسان قبل الثقافة ، أو على الأقل هي ما يحكي حالة الخلق قبل مرحلة الثقافة ، أي تتلاءم الأسطورة مع الحالة الطبيعية الأولى ، سواء تعلق الأمر بالإنسان أو الكون ، تلونت هذه الأسطورة بالبيئة التي احتضنتها ، و بالإنسان الذي أنتجها ، و هي في جوهرها منها ما هو مكتوب ، و منها ما هو غير مكتوب ، يتلقى و ينتقل مشافهة من إنسان إلى آخر ، قصد التسلية ، أو التخويف أو لغرض -مصلحة ما- كما ينتقل من جماعة إلى جماعة ، أو من حضارة إلى حضارة ، و من ثمة يمكن الاعتبار ان من الأسطورة ما هو نص ، غير أنه نص شفاهي ، يتلقى من الرجال مشافهة ، أي نص غير مكتوب ، و بتقدم المراحل و الزمن تدخل الإضافات الى الفجوات التي يتركها هذا النص ، و قد تتحول عبر الزمن الى نص مكتوب . فالأسطورة اذن : تعبير أدبي عن أنشطة الإنسان القديم الذي لم يكن قد طور أسلوبه للكتابة التاريخية ، يعينه على تسجيل أحداث يومه ، فكانت الأسطورة هي الوعاء الذي وضع فيه خلاصة فكره ⁴ أما حينما عرف الإنسان الكتابة فقد بدأ في تسجيل هذه الأساطير التي رأى فيها القداسة و العلوم و الطقسية و التوجيه الإيماني العيني . . لكن حينما نلاحظ هذا الضبط لمعني الاسطورة نجدها تلمح الي المعاني السلبية للاسطورة ، و هي المعاني التي في تصورنا ظلت مرهونه الي احكام مسبقة عنها و لم تتحرر منها ، بيد ان هناك من قد اشاد بالاساطير و اعتبرها حكايات غريبة ، لها أقوال شعبية تجعل من موضوعها الحديث عن الآلهة الأبطال والحيوانات وقوى الطبيعة . رموزها القوة و الإرادة اللا منتهية و الميثولوجيا الخارقة . ⁽⁵⁾ ، مواضيع هذه الأساطير الدين ، و الخلق ، و الوجود . لها وظائف اجتماعية تؤديها داخل النسيج الاجتماعي . نستنتج

مم سبق ان الاسطورة بوظائفها المختلفة الايجابي او حتى السلبي ،هي في الاساس البناء العقلي الانساني اللغوي الشفوي والمكتوب المحبوك في صور رمزية و مجازية ، ملأ مساحة من الفراغ تركها الخوف احيانا او العجز او التسلية و التوجيه. و نستنتج ايضا ان للاسطوره تداخل و تشابك مع معنيين آخرين و اقول تحديد ا في مجال المعاني لا يمكن ان نضع لها خطوط فاصلة لتداخلها في الوظيفة، والمحتوى والقدسية، و المجال .غير ان ثمة مجال يفرض نوعا من الالتباس، لابد من بيانه هو كالاتي :ان الاسطورة لها علاقة بالدين من حيث القدسية كما لها علاقة بالزمن من حيث التاريخ.

فاما علاقتها **بالتاريخ؟** **الا لأن** الأسطورة نتاج إنساني محض ،تكون عبر التاريخ بالإضافة و الحذف ،كون الثقافة الإنسانية و تغلغل في طياتها . فالأسطورة تسجيل تاريخي لفترة زمنية معينة خلت هذه الفترة من التدوين و اعتمدت على المشافهة ،تمثل في الغالب تاريخ شعب و تحكي قصته ،حاضرة باستمرار تروي مسائل الخلق والاله و الكون، و علاقاته بطريقة مقدسة، فالأسطورة تروي كما قال، **ميرسيا إلياد** انها " تروي تاريخا مقدسا، إنها تخبر عن حدث وقع في الزمن الأول، زمن البدايات العجيب⁽⁶⁾ . تروي حدثا جرى في الزمن الخالي ،هو زمن البدايات، كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود بفضل مآثر إجترحتها الكائنات العليا في زمن مضى، لا فرق بين أن تكون هذه الحقيقة كلية كالكون ،أو جزئية .كان تحكي قصة نوع من النبات ،أو مسلكا يسلكه الإنسان أو مؤسسة .و من ذلك تحتم ضرورة الاستفادة من المادة الأسطورية كمصدر للمادة التاريخية ،فالأسطورة تعبير أدبي عن أنشطة الإنسان القديم الذي لم يكن قد طور بعد أسلوبا للكتابة التاريخية، يعينه على تسجيل أحداث يومه، فكانت الأسطورة هي الوعاء الذي وضع فيه خلاصة فكره ، والوسيلة التي عبر بها عن هذا الفكر ،عن الأنشطة الإنسانية المختلفة التي مارسها بما فيها النشاط السياسي والديني والاقتصادي . ونجدها -الأسطورة- تقترب ايضا من مفهوم الدين من حيث انها نص سردي يعتمد على القصة و على ما تحتويه هذه القصة من مكونات و تأثيرات تلقى بظلالها على القارئ، فلا تخص الأسطورة فردا معينا، فهي تحكي تقاليد و أعراف و ثقافة مجتمع و طقوس و طوغم، تابعة لمخيل اجتماعي تعكسه و تعكس أبطاله و أحداثه ،تحكي برسالة الغائب ،و تنسب الأفعال لكائنات ماورائية . فجوهر هذه الأسطورة لما تتمتع به من قوى خارقة و معجزات نافذة في اطار الزمن الذي لا ينقضي بانقضاء سرد حوادثها ، بل تأثير الزمن مستمر القدسية متواصل الحضور من خلاله تلقي الأسطورة بظلالها المقدسة.و هو عين جوهر الدين . **فالدين** يمكن ان نعرفه بتعبير دوركايم انه نسق موحد و متكامل يشتمل على العقائد و الممارسات المتصلة بالاشياء المقدسة تلك العقائد و الممارسات تمارس في مجتمع صغير اخلاقي يسمى الكنيسة يتكون من قسمين : **العقائد** :و هي عبارة عن حالات فكرية او تصورات ذهنية. **العبادات** : و هي طرق عملية للسلوك يقوم بها الانسان حيال الاشياء المقدسة⁷ و اذا نظرنا الي مميزات الاسطورة التي تتقاطع مع كل من مجال الدين و التاريخ .و من خلال ما ذكرنا يتبين ان هناك نقاط مشتركة توحى بكثير من التداخل يلتقي فيها كل من الدين و الأسطورة و التاريخ فهل إذا علمنا ان الدين من ضمن محاوره القصص القرآني ، الذي حدث في التاريخ وإذا علمنا أن الأسطورة جزء من تاريخ غير مدون و بالتقدم زيدت له الأحداث، فهل القرآن بتعبير أركون الذي ذكرنا سلفا يحكي أساطيرا و ما تفاسير القرآن إلا إضافات أسطورية؟ و ما قصص القرآن الا نسخ لقصص يهودية او نصرانية ؟ فهل في هذا الالتقاء حجية لاركون في القول بالتماهي بينهما؟ هل احتواء النص القرآني علي تعابير رمزية و مجازية يوحي بالالتقاء مع الاسطورة ؟

نحاول ان نبين ان ما ذهب اليه اركون في الاهتمام ببعض المفاهيم والمصطلحات و محاولة تبيينتها ،هو في الاساس خدمة هدم مجانية لأسس التصور الاسلامي، و هدم لأعمدة هذا الفكر ،متقفا و ارادة الاستشراق في تحقيق هذا الهدف. عبر مساحات الفكر الواسعة و نظرتنا هذه تؤكدنا منطلقات اركون و والنتائج التي اراد اقرارها .ولنسمح لانفسنا ان نناقش هذه التساؤلات التي حاول اركون ان يؤسس من خلالها لمكون معرفي نراه غريبا عن البيئة المعرفية في الفكر الاسلامي، و نستهل هذا الطرح من من خلال ما يلي :

تبيان مسالتين هامتين :اولها

ان التعامل الاركوني مع النص القرآني يركز على مجموعة من المسلمات التي تختلف جذريا عن المسلمات الاولى التي انطلق أو ينطلق منها أي باحث تربوي في احضان الثقافة التقليدية في مقابل الثقافة الوافدة .

ثانيا :اننا نحاول ان نعرض مفصلا مسلمات هذا الطرح مع بيان انها مهلهلة و بذلك تسقط دعاوي اركون في مقصده الذي نود معالجته

فاول مسلمة يرتكز عليها اركون: ان الكتب السماوية تحمل ذات الصدقية و لا اختلاف بينها. على هذه الفكرة "" يبني مشروعه الذي يحلم به "" إن القرآن - كما الأنجيل - ليس إلا مجازات عالية تتكلم عن الوضع البشري ، إن هذه المجازات لا يمكن أن تكون قانوناً واضحاً، أما الوهم الكبير فهو اعتقاد الناس - اعتقاد الملايين - بإمكانية تحويل هذه التعابير المجازية إلى قانون شغال وفعال، ومبادئ محدودة، تطبق على كل الحالات وفي كل الظروف⁸. انه وهم بتعبير أركون ان نجعل من القرآن قانونا و مبادئ لان" المعطيات الخارقة للطبيعة والحكايات الأسطورية القرآنية سوف تُتلقى بصفتها تعابير أدبية ، أي تعابير محورة عن مطامح ورؤى وعواطف حقيقية يمكن فقط للتحليل التاريخي السوسيولوجي والبيكولوجي اللغوي "أن يعيها ويكشفهما"⁹)

و منه فتتاص الكتب المحرفة مع الفكر الأسطوري يعني في المنطق الاركوني تماهيا بالضرورة مع القرآن ، فهذه الرؤى هي في الاساس مخرجات تبرز تأثر اركون في دراسته للقرآن الكريم بمنهجية البحث العلمي السائدة في الغرب، و التي اسس لها الاستشراق سلفا ثم انبهاره بالمناخ العلمي والفكري الغربي، خاصة ما تعلق بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والتي كان منها تطور دراسة الدين وما يسمى داخل إطارها التطبيق المنهجي لهذه العلوم في دراسة اليهودية والنصرانية، وذلك بدراسة النصوص الدينية المقدسة في اليهودية والنصرانية. لكن لو كانت هناك مقارنة من حيث الدلالة و المحتوى و الصياغة النصية بين الاسطورة و باقي الكتب السماوية الاخرى المطعون في صحتها و سندها لكان الامر جائزا، فالنص التوراتي ""تشابك فيه الحقيقة و الاسطورة و الخرافة و الخيال ، و علي كثرة ما فيها من شعائر و طقوس سحرية او اساطير و ممارسات فان بعض ما جاء فيها لا يتفق و العقل السليم و المنطق ، و فيها ما هو مناف للعدل و الانصاف و قواعد الاخلاق لما فيها من شدة المبالغة¹⁰ و انظر الي ما ورد في سفر النبي يوشع ""يا شمس قفي علي جبعون و يا قمر علي وادي ايلون فوقفت الشمس و ثبت القمر الي ان انتقمت الامة من اعدائها،"فهل تري أي وجه للمنطق او أي احترام لقوانين الطبيعة او استحضر لقوانينها، حيث نلاحظ ان لا اختلاف بين هذا النص و بعض الاساطير الاخرى لكن الامر بالنسبة للقرآن مختلف علي الرغم ان محاولات اركون تهدف الي المماثلة بين الكتب المقدسة الثلاث اضافة الي استهجان الرؤى التي ترى النص القرآني مقدسا لايمكن دراسته. مستأنسا برأي فرانسيس بيكون في كتابه الأورجانون حينما يقول "" قد لا أعتقد بجميع القصص و الأساطير التي جاءت بالكتب الدينية ولكن لا يمكن أن أعتقد بعدم وجود عقل مدبر لهذا العالم. إن القليل من الفلسفة ينزع بعقل الإنسان إلى الإلحاد ولكن التعمق فيها ينتهي بعقول الناس إلى الإيمان لأن عقل الإنسان عندما ينظر إلى الأسباب الثانوية المبعثرة قد يتوقف عندها ولا يتجاوزها، ولكن عندما يشاهد تسلسلها و اتحادها، و اتصالها بعضها بعضا ينتهي به ذلك إلى الإيمان بوجود العناية الإلهية"".

ان الكتاب المقدس الذي يعتبره المسلمين اصدق كتاب ،و لا ياتيه الباطل من أي اتجاه يصبح عند اركون كما الانجيل ،هذه الانجيل التي يبدو ان اركون نسي ان المومنون بها اقرو انها كتبت بعد الانبياء الذين ارسلو بها،و هي في الغالب لم تسلم من التحريف و الزيد و الحذف ،اما المسلمة الثانية فيضيف اركون ان ما يتضمن في القرآن من حكايات اسطورية لا يرقى ان يصل الى صرامة القانون و تجريديته،بل خطابه ذا بعد مجازي أسطوري .ما يعني منهجيا ان محتوى القرآن -مجازي أسطوري-ما سينقلنا من المشروعية الدينية للمعرفة التي كانت سائدة في الفكر الاسلامي ،اي ثقافة النص و قدسيته -علي راي الاشاعة القبيح ما قبحه الشرع و الحسن ما حسنه الشرع- إلى المشروعية الأسطورية للمعرفة ،باعتبار أن الأسطورة مسار للمعرفة أو قاعدة لها . ليس على طريقة الفكر التتويري الذي رفضها لانها تفكير خرافي ،بل على طريق مخرجات ما سمي مجازا عند اركون المناهج العلمية في العلوم الإنسانية.ان تشابه بعض المضامين لا يعني التماهي، فعلى الرغم من التشابه الموجود الذي نراه بين بعض مضامين نص القرآن والمضامين الموجودة في الاسطورة لم يأتي القرآن ليصدقها ،لأنها ليست من الكتب التي سبقت (التوراة و الإنجيل)، و من غير المعقول أن يكون القرآن مصدقا للأساطير ،و الا منطقيا لا مبرر لوجوده او ارسال الرسول به. ان طبيعه القرآن تدعو الي الوحدة اليمانية ،وحدة المصدر، ووحدة الاتجاه،ووحدة الأمر،ووحدة الطريق ،ثم الكل بعد ذلك في انسجام واتساق ،فهل تحقق الاسطورة كل اسطورة و أي اسطورة هذا الانسجام والتكامل.لقد عرفنا تاريخ الاساطير التي اكتشفها الانسان ان التباين في تركيبها و تشريعها و طقوسها هو العلامة البارزة التي لا يختلف حولها، فأسطورة النيام السبعة مثلا في أفسس كما تذكر الموسوعة البريطانية وهم أبطال هذه الاسطورة وعددهم سبعة (أو ثمانية) من المسيحيين الذين اختبؤوا في كهف واغلق عليهم قرب مدينتهم . في أفسس و ذلك خلال اضطهاد المسيحيين 250 خلال حكم الامبراطور

الروماني ديكوس .⁽¹¹⁾ و كان نومهم في ذلك الكهف لفترة طويلة . هي القصة الكاملة التي قصها القرآن ولقد عمل فراس السواح على مقارنة هذه الأسطورة و النص القرآني في قصة أهل الكهف ،بين الأدب السرياني و القرآن .ولقد قادت هذه الدراسة الى انه علي الرغم من التشابه الموجود بين محتوى الأسطورة و محتوى القصة في القرآن الكريم إلا أنه لم يقل بأسطورية القرآن، واهم هذه الاسباب التي ذكرها تعليلا للاختلاف ان القصة جاءت قبل القرآن ،فهي أولا كأسطورة متميزة عليه من حيث الزمن . و عليه فاذا كان هناك تشابه فهو تشابه للمحتوى ،يعود لصدقية حدوث الواقعة، و ليس لاي شيء اخر ،فالقرآن يصدق الوقائع التي حدثت بالفعل .و لا يصدق الأساطير المنسوجة حولها، و هو افضل الرأي الذي نراه .اي ان القرآن ما جاء ليصدقها كقصة أسطورية تحمل من عناصر الخرافة ما يتنافى مع العقل ،بل كواقعة حدثت بالفعل.اذ القرآن لا يتنكر للوقائع باعتبارها جزء من التاريخ،و انما يصدق الاحداث التي حدثت فعلا، لكنه ايضا يتنكر للأساطير الخرافية التي نسجت حولها ،وإذا كان القرآن ذكر الاسطورة بمعنى الحكاية الكاذبة، أو الأحاديث الملفقة التي لا أساس لها في الواقع. فلكي فقط يشير الي ان هذه الأساطير الماضية كانت لدى الأولين، وهي جزء من الواقع الثقافي الذي كان سائدا. لان القرآن لا يمكنه القفز علي ذلك الواقع الفكري الذي نشأ فيه، موضحا ان هذا المجتمع الجاهلي هو مجتمع يغلب عليه التفكير الاسطوري او الفكر الميثي و يعرض لذلك من قبيل الحجاج العقلي و الايماني لا من قبيل السطو علي ما كان موجودا. قصد اعادة انتاجه بل من قبيل دحضه و بيان زيف.ضف الى ان الواقعية في النص القرآني تقابل الخيال في الاسطورة ،اذ النص القرآني ليس احياء أسطوري تتاقله المخيال الاجتماعي ،و لا ينبغي ان يكون كذلك،خاصة ونحن نعلم على وجه الاجماع أن كل المجتمعات الحاضرة و البائدة يحضر في إحساسها أن الأسطورة مهما كانت قريبة من الحقيقة فإن الخيال و المبالغة و حضور الكائنات الخارقة، لها وجود قوي وحضور فعلي داخل نسيجها. وعليه فحينما نتوغل داخل هذا النسيج خاصة حينما نتفحص الاليات التي يشتغل من خلالها الوعي الاسطوري عند الشعوب البدائية ، يتجلى لنا ان هذا الابداع كتعبير حقيقي من هذا الانسان ،هو في الاساس محاولة منه تفسير تلك الفجوة بينه و بين قوى الطبيعة .تلك القوى التي تفرض عليه نوعا من الاستقرار النفسي والقهر الاجتماعي وحتى الطبيعي ،فهو -الاسطورة- بهذا التفسير الخيالي في الغالب تعكس الجانب اللامعقول من تفكير الانسان ، لذلك نجدها مؤلفة من غرائب الوجود،موغلة في الخيال المقصود عند اركون .

ان القرآن يحتوي عناصر ميثية رمزية تحمل على الدافعية و الابداع هي ذاتها ما نجده في الاسطورة .و بالتالي هذه العناصر الميثية هي التي تدفع الي التغيير الاجتماعي و تضيف الي حركة التاريخ، و توجج الصراع من خلال ما يلعبه الرمز الميثي في صياغة نماذج مثالية في السلوك، او التصور، فالبطولات التاريخية التي يصنعها الصحابة و الاشكال التي تحمل دلالات رمزية في الايثار و التقشف و الحب اللامحدود للرسول، و الصور الخيالية للتضحية، و التقاني، كلها اشكال تخلق دافعية عجيبة في النفس لا يمكن ان يصنعها الا مخيال غارق في الرمزية، لكن هل لان القرآن احتوي علي هذه الرمزية فهو مفعم بالاسطورية؟ ان الانسان عند أركون لا تحركه فقط الحوافر المادية و الإقتصادية و إنما تسيره أيضا الصور الخيالية، فكثيرا ما تتجهج الناس و تخرج إلي الشارع لمجرد أن شخصا قد ضرب على وتر المخيال الاجتماعي⁽¹²⁾ إذا كان الإنسان خاضع في حركته للمخيال، فان الاسطورة جزء من المخيال، و لا ظير ان تتحكم الاسطورة في جزء من سلوك هذا الانسان و فكره .و يصبح القرآن بهذا التعبير جزءا من المخيال ، فبدل أن يكون القرآن مرجع يستند إليه الأفراد في سلوكهم ،يصبح على هامش الذاكرة الاجتماعية، قد يحركهم بلاضوابط ،و قد لا يحركهم . فيصبح من المهم عند أركون ضرورة القيام بعملية تفكيكه للترتيبات الأيديولوجية . و أحلام اليقظة الجماعية و الهلوسات الفردية التي تحيلنا إلى الإسلام . كدين و كتراث فكري إلى مغادرة كل أيديولوجيا كبرى تعمل على تحريك المتخيل الاجتماعي⁽¹³⁾ لكن ما يجب علمه ان القرآن وقائعه يومية معاشة تعالج الانحراف في خط السير كما حدث في غزوه احد⁽¹⁴⁾ و تعاتب على الفعل كما في حدث في الاسرى يوم بدر⁽¹⁵⁾ .وتصل الى مكونات النفس تجليها كما حدث مع زيد⁽¹⁶⁾ .وويوجه السلوك مثل ما حدث مع عبد الله بن ام مكتوم او في المجادلة، فالخيال تصدق مقولاته مع النص الاسطوري و ليس مع النص القرآني . و القول بأسطورية لا يعني الا انه نص تمتزج به الخرافة بالحقيقة.و ينتصر فيه الخيال على الواقع ، و غلبة الشك على اليقين . -ان القول بأسطورية القرآن هدفه من ذلك الوصول بالقرائي في أقل تقدير في نظر أركون الى المماثلة بين القرآن و ما هو أسطوري، ما سيسمح أن تنزع الثقة بالقرآن الكريم و قداسته ،من منطق كما قال "أنه نص أسطوري"⁽¹⁷⁾

يعرض اركون أن النص القرآني نص بشري في اللحظة التي تكلم بها لأول مرة لكن هل يجب للنص القرآني أن يكون نصا اسطوريا أو أسطورة ليتسنى لنا نقده، بل قراءته قراءة مفتوحة على كل المناهج، والأليات التي أنتجت ثقافة النقد النصي في البيئة الغربية. هذه القراءة التي تريد أن تتخفف من ثقل الهالة القدسية التي يعتقد اركون أن شراح ومفسرو القرآن قد انتجوها. حينما يصبح القرآن أسطورة عند اركون نتمكن من تحديد المعاني وتأويل المقاصد. وترتيب الأفكار من جديد أما حينما يبقى القرآن بجلته وبعليائه وبمكانته عند معتققي ديانته، فإن ذلك مانع من تقبل هذه القراءة التجديدية الثورية عند اركون. مع ما يصاحب من زوال القدسية للنص القرآني من إسقاط للأحكام. أحكام الردة الزندقية أو المروق. لقد حاول اركون إعادة المتخيل العربي الجاهلي وإحيائه مرة أخرى ((إن هذا إلا أساطير الأولين)) أكتنبتها فهي تملأ عليه بكرة وعشية.. يعلم اركون ويخاف ما يصيبه من نقمة. فهو يتمنع داخل عباءة العلم و رداء البحث، من أن تطاله الأوصاف وتكال له التهم، فنجده يعرض هذا التخوف في قوله (أن وصف المعارضين يختزل إلى كلمة واحدة هي المشركون لقد رمو كليا ونهائيا وبشكل عنيف في ساحة الشر والسلب والموت دون أن يقدم النص القرآني أي تفسير أو تحليل لهذا الرفض و الطرد⁽¹⁸⁾) لأنه يعلم بطلان ادعائه، فالقرآن متفرد في طرحه ومواضيعه، ولا يشبه ما كان موجودا في بيئته يرى "عبد المالك مرتاض" أن الأساطير عند العرب أوجزت، وأن الشخصية الأسطورية العربية باهتة الملامح، شاحبة البناء، غامضة التمثيل⁽¹⁹⁾ فمن أي الأساطير اخذ القرآن، ثم هل هي أسطورة واحدة أم مجموعة أساطير، خاصة إذا كنا نعلم أنه يوجد من الأساطير، بقدر ما يجد من الثقافات والشعوب.، ولكل أمة من الأمم أساطيرها التي تجيب عن الأسئلة التي تطرحها. ولعل اركون ليس الوحيد ممن تكلم بهذا الطرح بل نجد من أمثال نصر حامد أبو زيد من يعززون الطرح الاركوني في قراءة النص القرآني والقصة في القرآن من خلال بناء مناخ ثقافي ساهم في إثراء اركون بدعاوى هذه الأسطورة. لقد ورد في كتابه النص السلطة. الحقيقة. و "فيما يتعلق بالنصوص القصصية الشفاهية يمكن القول أن التناص معها اعتمد على آلية الإستعاب و آلية التوظيف من خلال سياق يعيد تأويلها وتأويلها ناطقا بايديولوجية النص، أما المرفق من النصوص الدينية فقد اعتمد آلية انتقائية التي تقبل الأجزاء. و تعيد توظيفها وتأويلها أما الأجزاء المرفوضة فتم تصنيفها في خانة الانحراف أو التحريف الناتج عن الضلال و من السهل على النص أن يقوم بالتأويل والتصنيف اعتمادا على أنه نص نابع من المصدر نفسه و أن إحدى مهامه من ثم تصويب الانحراف إلى أحدثها البشر في أصوله السابقة⁽²⁰⁾) و هي دعوى إلى أن القرآن قد أخذ من ما كان موجودا في الثقافة المحيطة به، كل الثقافة بما في ذلك الكتب الدينية السابقة. غير أن الحفريات والآثار التي طالت هذه الحضارات و الأمم لم تتبنا بما هو موجود في القصص القرآني. هكذا تتوسع هذه الطروحات الاركونية المدعومة من تيارات ومذاهب مختلفة و كأن بعضها يسند بعضها ويشد بعضها علي ازره حتي لا يبقى المشروع الاركوني صوتا نشازا يغرد خارج السرب لكن على الرغم من ذلك الا أن اشكالية توظيف المصطلحات الغربية ضمن منظومة الأفكار الإسلامية التابعة لثقافة النص، تبقى تطرح نفسها لا تنتهي في اشكال ومواضيع أخرى، هذه المحاولة التي تندرج ضمن محاولات الاستشراق اغراق الفكر الإسلامي وثقافته بمصطلحات ومناهج لا تخدم الفكر الإسلامي بقدر ما تشوش انتماءه، مع مساس بقدسيته ابتداء من خلال نزعه بمجرد تشبيه القرآن بالأسطورة، فيه انتقاص من قيمة القرآن، فقد كان العرب يستقبحون هذا التشبيه - كان اقول "فعلي الرغم من ان الامر مجرد تشبيه غير انه انتقاص من قيمة السيف الم تر ان السيف ينقص قدره --- اذا قلت ان السيف أمضى من العصى" هذا ناهيك عن القول ببشريته او حتي ربطه بمعطيات الخرافة و الاسطورة .

الهوامش

¹ - محمد اركون الفكر الاسلامي نقد و اجتهاد ترجمة هاشم صالح مركز الانماء القومي بيروت 1999 ص 175

ابن منظور، لسان العرب، الجزء 4 ص 363- 364- 365 2 -

- محمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت مكتبة لبنان، الطبعة الجديدة 1993 ص 244 3

- محمد خليفة حسن أحمد الأسطورة و التاريخ في التراث الشرقي القديم، دار الشؤون الثقافية العامة 1988 ص 23

5- تركي علي الربيعو، الإسلام و ملحمة الخلق و الأسطورة، المركز الثقافي العربي، بيروت، طبعة 1986 ص 120

- 6- ميرسيا إلياد، ملامح من الأسطورة ، ترجمة حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة السورية دمشق 1995. ص 11
- 7- يراجع محمد الخطيب، الاثنولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية، دار علاء الدين للنشر، ب ت، ص 25
- محمد أركون، تاريخية الفكر الإسلامي دار الساقى، ترجمة هاشم صالح ط 1، 8، 1990 ص 299
- 9 - محمد أركون الفكر الإسلامي قراءة علمية ، ترجمة هاشم صالح مركز الإنماء القومي بيروت 1987 ص 191
- 10 - ناصر إبراهيم، التوراة بين الحقيقة والأسطورة والخيال، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا 2005، ص 10
- موسوعة البريطانية 1984 ص 441 11
- 12- محمد أركون ، أين هو الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي بيروت ط 2 ص 74
- محمد أركون تاريخية الفكر العربي ترجمة ط ص 61 13
- سورة آل عمران الآية 120- 186 14
- سورة الانفال الآية 15- 19 15
- سورة الاحزاب -الآية 36- 42 16
- محمد أركون الفكر الإسلامي نقد واجتهاد ص 85 ، 86 مصدر سابق 17
- محمد أركون الفكر الإسلامي ،قراءة علمية مصدر سابق ص 96 18
- 19- ع بد المالك مرتاض الميثولوجيا عند العرب: دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة الدار التونسية للنشر 1989 ص 88 -
- 20- نصر حامد أبوزيد النص ، السلطة ، الحقيقة المركز الثقافي العربي بيروت 1995 ص 101

المصادر و المراجع

القرآن الكريم

- أركون، محمد، 1990،، تاريخية الفكر الإسلامي الطبعة الاولى، بيروت، دار الساقى،
- أركون، محمد، 1983، الفكر العربي، ترجمة عادل العوا، الطبعة الاولى بيروت، منشورات عويدات
- أركون، محمد، أين هو الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، الطبعة الثانية بيروت مركز الإنماء القومي بيروت
- أركون، محمد ، 1987 ، الفكر الاسلامي ،قراءة علمية ،ترجمة هاشم صالح ،الطبعة الثانية، بيروت
- أركون محمد، 1992،، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ترجمة هاشم صالح، بيروت ، دار الساقى للطباعة
- ابو الفضل جمال محمد بن مكرم (ابن منظور)، 2003، لسان العرب ، بيروت، دار صادر
- احمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت مكتبة لبنان ، الطبعة الجديدة 1993 ص 244
- الربيعو تركي علي ، 1986، الإسلام و ملحمة الخلق و الأسطورة ،بيروت ، المركز الثقافي العربي،
- حامد ناصر ابو زيد ، 1995 ، النص السلطة الحقيقة ،بيروت ،المركز الثقافي العربي:
- الخطيب محمد، 1983 الاثنولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية، دار علاء الدين للنشر ب ت
- الموسوعة البريطانية 2007 الطبعة 15 علي الشبكة العنكبوتية <http://search.eb.com>
- محمد خليفة حسن أحمد 1988، الأسطورة و التاريخ في التراث الشرقي القديم ،دار الشؤون الثقافية العامة
- مرتاض، عبد المالك، 1989 الميثولوجيا عند العرب: دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة تونس ،الدار التونسية للنشر
- ميرسيا إلياد، 1995، ملامح من الأسطورة ، ترجمة حسيب كاسوحة، دمشق منشورات وزارة الثقافة السورية
- ناصر إبراهيم، 2005 ،التوراة بين الحقيقة والأسطورة والخيال، سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع،